بقايا ذكريات

أحمد حسن الباقوري

الطبعـة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

غلاف
عبد الغنى أبو العينين

المحتويات

صفحة

تمهيـــد ٥

القسم الأول
الأزهـر .. معـارك ورجال

الفصـل الأول : الأصل والإطـار ١٣

القسم الثـانى
فى صفوف الإخوان المسلمين

الفصل الثـانى : اللقاء مع البنا والأمانة التى حمّلها لى قبل استشهاده ٣٩
الفصـل الثالث : ليس نظاما خاصا واحدا بل نظامين ٦٩
الفصـل الرابع : الإخوان بعد الإمام ٩١

القسم الثـالث
مـع ثـــوار يوليـو

الفصل الخامس : من معهد المنيا للوزارة ١١٥
الفصل السادس : سفير الثورة إلى العالم .. من الفلبين للمغرب ١٤١
الفصـل السابع : عبد الناصر .. أسلوبه وبطانته ٢٠١
الفصـل الثامن : تدهور العلاقات مع عبد الناصر .. البداية كانت فى سوريا ٢٢٩

تمهيـــــد

شهد الله أننى كنت شديد العزوف عن تدوين هذه الذكريات ، مقالات فى مجلة أو صفحات فى كتاب . وذلك أننى أعلم أن الذين عايشوا أحداثا فى دنيا الناس ، لابد أنهم يتعرضون فى أحاديثهم عن تلكم الأحداث لأفراد أو جماعات واكبوا الأحداث مواكبة حرص على الحق وإخلاص لله ، أو مواكبة حرص على الظفر بمنفعة شخصية استرضاء لعاطفة حزبية .

ولا شك فى أن التعرض لأولئك المخطئين بما يعيبهم أو يعيب ذوى قرباهم ، إن هو إلا عقوق لأدب الإسلام ، وأخذ فى سبيل غير سبيل المؤمنين ، التى نهى رسول الله عن سلوكها بقوله ﷺ « لا تسبوا الأموات فإنهم أفضوا إلى ما قدموا » .

وذكر معايب الموتى هو لَوْن من ألوان سبهم الذى نهانا عنه رسول الله . فلقد أذكر ويذكر الذين يؤرخون للحركات الاجتماعية ، أننى شهدت ثلاث حركات ، كانت تتغيا الإصلاح لدنيا العروبة والعرب ، ودنيا الإسلام والمسلمين ، وهذه الحركات الثلاث هى : **حركة الإخوان المسلمين** التى وضع قواعدها وحدد معالمها **الإمام الشهيد حسن البنا** فى مدينة الاسماعيلية عام ١٩٢٧ ميلادية .

ثم **حركة طلاب الأزهر الشريف** ، التى قام بها طلاب أزهريون بتحريض من أساتذة وشيوخ ذوى غيرة بالغة على شئون الأزهر وشئون الإسلام . وقد بدأت هذه الحركة سنة ١٩٣٤ ميلادية .

ثم جاءت بعد ذلك **ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ميلادية** التى وضع قواعدها ، وقام بتنفيذها مجموعة الضباط الأحرار .

وليس يفوتنى ـ لله ثم للتاريخ ـ أننى أسهمت بنصيب مقدور فى الحركات الثلاث ، إذ كنت مع الإمام الشهيد مريدا من مريديه ، أو حواريا من حوارييه منذ بدأ حركته المقدورة ، فلا أذكر أننى تخلفت عنه فى رحلة رحلها من الاسكندرية إلى أسوان ، ومن بور سعيد إلى الدار البيضاء أتلقى منه وآخذ عنه .

ولما قامت ثورة الأزهر ، كنت عنوان الثورة فيها ، وكان اسمى فى رأس القائمة التى قرر المجلس الأعلى للأزهر فصل أساتذتها وطلابها وحرمانهم من شرف الانتساب إلى الأزهر الشريف .

وقد ظلّت الثورات يأخذ بعضها بعجز بعض ، حتى إذا كانت ثورة الضباط الأحرار اختارنى رجالها لسانا لها ، يدعو الى تأييدها والانتصار لها بكل سبيل كما تشهد بذلك وثائق التاريخ .

وليس يخفى على ذى نظر بعيد أن للتاريخ قداسة ، وأن الذين يتعرضون لكتابته لا مناص لهم من أن يظلموه استرضاء للناس . أو يظلموا الناس إنصافا للتاريخ ، فالمؤرخ أو مدون الذكريات بين أمرين أحدهما مر وأخيرهما شر ، وهذا هو الذى جعلنى شديد العزوف عن تدوين هذه البقايا من الذكريات أو هذه الصحائف من المذكرات .

غير أن أمرا واحدا هو الذى نفى عن نفسى الحرج ، وحملنى حملا على كتابة هذه الصحائف ، وذلك الأمر له طرفان كلاهما له فى نفسى مكان عزيز وحق مقدور ، فأما أحد الطرفين فهو أولئك الإخوة الأعزاء الذين يستحثوننى ـ كلما التقيت بهم ـ على كتابة مذكراتى وفاء منهم لمعنى كريم يتصل بشخصى ، أو يتصل بشعبنا الذى نعتز به ، وأمتنا العربية الإسلامية التى نعتزى إليها ، ضنا بالحقائق أن تلعب بها الأهواء والشهوات ، أو تستغلها الأحقاد والعداوات التى تتربص بأمتنا العربية ، وأمتنا الإسلامية فى شتى شئونها الاجتماعية والسياسية . هذا ما يتصل بأحد الطرفين الذى أتمثل فى إطاره أخوة أعزاء .

وأما ما يتصل بالطرف الآخر ، فهو أن الذين كتبوا مذكراتهم ونشروها فى الناس ، قد دونوا فى سطورها اسمى ، وكأنهم يستشهدوننى على ما كتبوا ، أو هم يدعوننى إلى أن أكتب كما كتبوا للتاريخ ما تعيه الذاكرة من أحداث ، لا ريب فى أن التاريخ يحرص عليها ، والأمة تحتاج إليها .

وعن هذا الإحساس الواعى ، لم أجد مندوحة عن كتابة هذه الصحائف على أن استبدل بكلمة « **مذكرات** » كلمة **ذكريات** أو « **بقايا ذكريات** » فإن هذا التعبير أكثر وضوحا ، وأبين دلالة ، وأخلق بمسايرة الأحداث التى عايشتنا ، وعايشناها أمدا ليس بالقصير ، تنطمس فيه معالم الطريق إلا على أولئك الذين حاولوا أن يتشبهوا بكبار الساسة فراحوا يقيدون فى كراسات ما يمر بهم من أحداث ، وما يجرى فى رؤوسهم من خواطر ، على نحو ما كان يفعل ذلك الأستاذ حسن البنا ، فإنه كان كلما رحل فى جوانب مصر كتب فى كراسة كل أحداث يومه قبل أن ينام فمثله ـ رحمه الله ـ يستطيع أن يقول « مذكرات » . أما نحن وأمثالنا فإن الأشبه بأحوالنا أن نؤثر كلمة « **بقايا ذكريات** » إذ كنا لم نقيد الأحداث يوما أثر يوم فضاع منها الكثير فى غمرة ذهن مكدود ، وعيش مجهود ، والله المستعان .

على أن من الذكريات ما يراه أهل الخير تحدثا بأنعم الله ، ومعوانا على

ما ينفعهم فى خاصة أنفسهم . أو ينفع الناس بهم ، كما يرى ذلك الذين فقهوا سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه ـ فإنهم سوف يرونه خطيبا على منبر رسول الله ﷺ ، وقد اجتمع فى المسجد النبوى الشريف المهاجرون والأنصار ، فقام عمر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمد عبد الله ورسوله ، ثم قال « أيها الناس لقد رأيتنى أرعى غنما لخالاتى ، وقد ارتديت قميصا دون ركبتى حتى إذا غربت الشمس رحت عليهن بالغنم ، فقبضن لى قبضات من التمر أتبلغ بهن إلى اليوم التالى ، وهأنذا ـ اليوم ـ أمير المؤمنين ليس فوقى سلطان إلا الله رب العالمين » .

ثم نزل عن المنبر والعجب منه ملء الصدور ، والإنكار عليه يكاد يهتف به فى السنة عامة المجتمعين « لقد أخطأت يا عمر » . فلما نزل ـ رضى الله عنه ، قام إليه أقرب الناس إلى قلبه ، وأوثقهم عنده وأشدهم إخلاصا له ، وهو عبد الرحمن بن عوف ، فقال له : « ما هذا الذى صنعت يا أمير المؤمنين إنك لم تزد على أنك حقّرت لنا نفسك ! » فأجاب عمر إجابة الذى يعرف نفسه ويخشى ربه ، ويصون أمانة الله عنده ، فقال له « لا تخدعنى عن نفسى يا ابن عوف ، فإنى قلت ما سمعتم لا أريد بذلك إلا خيرا لى ولكم ، فقد رأيت نفسى قد أخذ الغرور بزمامها حتى كادت تسلك بى شر المسالك ، وتحملنى على ما لا خير فيه لى ولكم ، فإذا أنا شر راع ، وأنتم أشقى رعية ، ثم لم أجد أمنا من فتنتها إلا من أذكرها بما فيها حتى تأخذ من الماضى عبرة للحاضر والمستقبل . وعسى أن أكون قد ظفرت بحسن النية وصواب السلوك وخير الإسلام والمسلمين » .

هذا ومن أعجب أحاديث الذكريات وأنفعها للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، حديث يتجلى فيه وجه العبرة تجليا يضع الناس فى حرج شديد بين هَم مقعد مقيم . وقد روى هذا الحديث الأديب العربى الأستاذ عبد الله عفيفى إمام جلالة الملك فؤاد الأول فذلك حيث قال فى مجلس من مجالس أدبه لطلابة ، والآخذين عنه ما نؤثر أن نرويه بأسلوبه هو حيث قال : « فى أصيل يوم من صيف سنة ١٩١٤ كنت واقفا مع الواقفين فى محطة السكة الحديد بطنطا ، أترقب القطار القادم من الاسكندرية إلى القاهرة ، ولقد كان كل من فى المحطة مشغولا بتلك الدقائق المعدودات يقضيها فى توديع وإشفاق وترقب وانتظار وحمل متاع ، وكنت فى شغل بصديق يجاذبنى حديثا شيقا ممتعا ، وبين ذلك الجمع المحتشد ، راع الناس صياح وإعوال ومشادة ومدافعة ، ثم أبصروا فإذا فتاة فى السابعة عشرة من عمرها يقودها إلى موقف القطار شرطى عات شديد ، ومعه ساع من سعاة معتمدى الدول الغربية قوى عتيد ، ومن خلفها شيخ أوروبى جاوز الستين مكتئب مهزول ، والفتاة تدافع الرجلين من حولها بيدين لا حول لهما ولا قوة . ثم أقبل القطار فكاد كل ينسى ـ بذلك الموقف ـ موقفه وما قصد له ، ثم أصعدت الفتاة ، وصعد معها من حولها ، وعجلت أنا

وصاحبى فأخذنا مقاعدنا حيث أخذوا مقاعدهم ؛ كل ذلك والفتاة على حال من الحزن والكرب لا يجمل معها الصبر ، ولا يحمد دونها الصمت ، ولذلك لم أجد بدا من أن أسأل الشيخ ما خطبه ، وما أمر الفتاة التى معه ؟ فقال ، وقد أشرقه وقطع صوته الأسى ، إننى رجل أسبانى وهذه الفتاة ابنتى ، وقد عرض لها منذ حين ما لم أعلمه ، فصحوت ذات يوم على صوتها تصلى صلاة المرأة المسلمة ، ومنذ ذلك اليوم احتجزت ثيابها لكى تتولى أمر غسلها بنفسها وأرسلت خمارها الأبيض على صفحتى وجهها ومكشوف صدرها ، ثم أخذت تقضى وقتها فى صلاة وصيام وسجود وهجود ، وكانت تدعى « روز » فأبت إلا أن تسمى فاطمة ، ثم ما لبثت أن تبعتها أختها الصغرى ، فصارت أشبه بها من القطرة بالقطرة ، ومن الزهرة بالزهرة . ولقد فزعت أنا لهول ذلك الأمر فقصدت أحد أساقفتنا فأخذ يعانى رياضة الفتاة ، فلم يجد إلا شماسا وامتناعا ، فعزّت على الرجل خيبته فكتب إلى معتمد الدولة الأسبانية فى القاهرة بأمر الأسرة الخارجة على دينها ؛ وهنالك أمر المعتمد حكومة مصر فساقت إليه الفتاة كما ترى برغمها ورغم ذويها ، لكى يقذف بها بين جوانب دير تسترد فيه دينها الذى تخلصت منه واسمها الذى تخلت عنه إلى اسم فاطمة » قلت له : أو أرضاك أن تساق ابنتك سوق الآثمات المجرمات على غير إثم أو جريمة ؟ فزفر الرجل زفرة كاد ينصدع لها قلبه ، ثم قال : لقد خدعت وغلب أمر الحكومتين أمرى فما عساى أن أفعل ؟

على أثر ذلك انثنيت إلى الفتاة ، وهى تعالج من أهوال الحزن ما تخشع الراسيات من دون احتماله ، فقلت لها ما بالك يا فاطمة هكذا حزينة مكتئبة ؟ فأجابتنى فى صوت يتعثر من الضنى ، وقد أنست منى ما لم تأنسه ممن حولها فقالت لنا جيرة مسلمون ، أغدو إليهم فأستمع أمر دينهم ، حتى إذا أخذنى النوم ذات ليلة ، رأيت النبى محمدا ، ﷺ ، فى هالة من النور يخطف سناها الأبصار ، وهو يقول ملوحا لى بيده : « اقتربى يا فاطمة » وما أن بلغت الفتاة هذه الجملة حتى ارتعدت ثم أخذتها رجفة ، فهوت على مقعدها كأنها بناء منقض ، فلما أفاقت من غشيتها قلت لها : وما تخافين يا فاطمة ؟ قالت سيؤمر بى إلى دير حيث ينهلون السياط من دمى ولست من ذلك أخاف ، إلا أن أخوف ما أخاف أن يحال بينى وبين صلاتى ونسكى . ومازلت بالفتاة الاطفها ، وأتحدث إليها حتى انصرفت مع أبيها ومعتمد الدولة الأسبانية فى القاهرة ، ولست أدرى بعد ذلك ما كان من أمرها . والأمر إلى الله تعالى ، يقضى فيه بما يشاء كيف يشاء .

فهذه أحاديث ثلاثة على السنة صادقين مقدورين ، وكل حديث منها يصلح لأن يكون ذكريات أو مذكرات ، وربما كان فى إيرادها على هذا النحو ، تذكرة بأن تدوين المذكرات أو الذكريات ، ليس وليد العصر الذى نعيش فيه الآن ، ولكنه أمر قديم ، ومن شأن ذلك أن يدعو مثلى إلى تدوين ذكرياته فى غير حرج ولا تأثم ، إذ كان موضع القدوة فيه واضح المعالم خافق الأعلام ، ولذلك رأيتنى منشرح الصدر لكتابة

ما يسميه الناس « مذكرات » وأسميه أنا « **بقايا ذكريات** » .

وإنى لضارع إلى الله ـ جل ثناؤه ـ أن يعصمنى من العجب بما أحسن ، والتكلف لما لا أحسن ، فإنه ـ سبحانه ـ المأمول لكل خير وهو يتولى الصالحين .

فى ظلال وارفة من هذه الأحاسيس ، وفى أنس بما ذكر الأسلاف الصالحون ، وكتب الأخلاف الموثوقون من ذكريات ، يرجون الخير لأنفسهم أو لأمتهم بهم ، رأيتنى منشرح الصدر لاستجماع إرادتى ، وكد ذهنى فى محاولة الظفر بذكريات أكتبها ، رجاء أن ينفع الله بها الذين يطلبون الحق ويحرصون على الانتفاع به ، ولكنهم لا يجدون السبيل إليه إلا بشاهد مقدور موثوق ، وإنى لضارع إلى الله ـ جل جلاله ـ أن يجعل منى ذلك الشاهد ، الذى يوثق به ويؤخذ عنه والله ولى الصالحين .

القسم الأول

الأزهر.. معارك ورجال

الفصل الأول

الأصل والإطار

إن القدوة بالأسلاف الصالحين تنطوى على حكم بالغة وفيها ـ بلا ريب ـ خير كثير . وقد ألفوا أن يعرفوا الناس بأنفسهم على صورة تجعل الآخذ عنهم مُلِما بأحوالهم فى الثقة بهم ، والاطمئنان إلى أنهم يقولون ما يعلمون . ومن هذا المنطلق لا أرى بأسا فى أن أقدم نفسى لقراء هذه الكلمات فأذكر لهم أننا ـ أهلى وأسرتى ـ وافدون من المغرب الأقصى ، بعد أن طرد العرب من الأندلس واستولى الاستعمار على تلك البلاد .

وقد كان والدى الشيخ حسن عبد القادر بدويا حريصا على أن نحفظ سلسلة نسبنا التى تبتدىء بالشيخ عبد القادر عبد القادر بدوى ، وأن هذا الرجل « عبد القادر » حين بلغ مصر نزل ـ أول ما نزل ـ بقرية « دوينة » من أعمال مركز أبو تيج بمديرية أسيوط ، ثم تحول الرجل إلى قرية باقور القريبة منها وقد لقب بالبدوى .

وكان الرجل شديد الاعتزاز بنسبه ، وقد ماتت زوجته أثناء الرحلة إلى البلاد المصرية ، فأخذ يبحث عن زوجة تقاسمه هموم الحياة ، وتعينه على شدائد الدهر ، فكان يحرص على أن يجد زوجة مهاجرة مثله من المغرب إلى مصر ، فدله إخوانه على أن يطلب زوجته فى قرية من قرى صعيد مصر تعرف « بنزلة الأشراف » . وقد يسر الله له الطريق إلى الزواج بسيدة تدعى « أم على » فولدت له جدى الشيخ أحمد عبد القادر بدوى . ولقد أذكر أن جماعة من نزلة الأشراف جاءوا إلىّ يزورونني ، وأنا يومئذ وزير الأوقاف ، ولقد أخبرونى بهذا النسب وذكروا أن للسيدة « أم على » ميراثا فى تلك القرية . فكان ذلك تأكيدا لما كان يذكره لى والدى عن هذا النسب .

حالة مصر فى آخر القرن التاسع عشر

وغير خفى على الذين يتدبرون تاريخ مصر فى آخر القرن التاسع عشر الميلادى ، أن البلاد كانت مرتبكة ارتباكا شديدا فى الجانب السياسى ، والجانب الاقتصادى .

ومرجع الارتباك فى النظام السياسى تعدد السلطات الحاكمة إذ كانت السلطة الأولى هى سلطة الوالى العثمانى الذى كان نائبا عن السلطان فى حكم البلاد . وكانت السلطة الثانية هى سلطة رؤساء الجند الذين هم قواد الفرق . وكانت السلطة الثالثة هى مجلس شورى الباشا التركى ، وكان من شأن ذلك ألا يتم أمر تدار على أساسه سياسة البلاد .

فإذا تركنا النظام السياسى إلى النظام الاقتصادى ، رأينا نظاما اقتصاديا هو إلى الخيال الجامح أدنى منه إلى الحقيقة الواقعة . ذلك أن السلطان كان قد اعتبر نفسه مالكا لأراضى مصر كلها من حيث الانتفاع بغلاتها وثمراتها ، ولم يكن الفلاحون المصريون يملكون من الأرض إلا النزر اليسير ينتفعون به ويتوارثونه ، وكانت ملكيتهم معلقة على دفع الضرائب وكانت الضرائب فادحة ، وأفدح ما كان فيها نظام الالتزام ، وهو أن تعرض الحكومة الأرض المراد جباية ضريبتها للمزايدة ، فيتقدم أعيان البلاد ليتعهدوا بدفع الضرائب المرادة ، وإلزام أنفسهم بها ، ثم يطلبون إلى الفلاحين أن يؤدوا الضرائب التى عليهم للحكومة . ولكنهم فى كثير من الأحيان كانوا يضيفون إلى مقدار الضريبة مثلها أو أكثر ، ثم يحصلون هذا المقدار عن طريق الضرب والإهانة والحبس ، وكل ما يؤدى إلى الحصول على المال .

وقد أذكر أن العالم الجليل الشيخ الدردير كتب فى باب الإجارة فى الفقه يقول : « إن نظام الالتزام حرام ، وإن الذين يأكلونه من الولاة والأمراء والأعيان إنما يأكلون فى بطونهم النار » .

وما دام الأمر أمر ذكريات فإننى أذكر أننى سألت الإمام المراغى ذات يوم : لماذا تصر على زيارة مسجد الشيخ الدردير فى كل رمضان مع شدة الزحام فى الطريق إليه ، إذ كان الشارع الذى يقع فيه المسجد عبارة عن درب طويل لا يتسع لمرور السيارة ، وقد كان هذا الدرب متفرعا من شارع الغورية فى منطقة الأزهر الشريف ، فقال لى الشيخ المراغى فى مجلسه فى إدارة الأزهر : « إن هذا الرجل هو الصورة المثلى لشيخ الإسلام علما وزهدا وشجاعة ، ولست أعرف له نظيرا فيمن عرفت من الذين عاصرناهم أو سمعنا عنهم » .

لقد اجتمع على مصر لونان من ألوان الظلم واضطراب الأحوال : الاستبداد السياسى ، والاختلال الاقتصادى وقد أنتج هذان اللونان فى حياة الشعب المصرى اللجوء إلى « الكرباج » الذى كان وسيلة تُجبى بها الضرائب ، وتُنفذ به مشيئة الحاكم كبيرا كان أم صغيرا .

وإلى جانب هذا البلاء جاء نظام السخرة الذى جرّ آلاما لا تحصى على عشرات الآلاف من الفلاحين الذين كانوا يخرجون كل سنة من بيوتهم لتطهير الترع ، ومقاومة

الجراد وتقوية الجسور ، فكان هؤلاء التعساء يلزمون العمل على أعين نظار مسلحين بالكرباج ليلا ونهارا ، أسابيع وشهورا بغير وقاء ولا أجور ثم يحصدهم الموت زمرا .

وقد أنتجت هذه الحياة الاجتماعية استسلام الشعب لكل ذى سلطان . ولكن المصريين ـ كما يعلم الذين درسوا التاريخ ـ لا يتركون مقاومة خصومهم فإذا عجزوا عن لقائهم بالقوة يدفعون بها عن أنفسهم ظلم الظالمين ، فإنهم يعمدون إلى النكتة المعروفة عنهم ، وهى سلاح له قيمة فى تسلية المظلومين وموعظة الظالمين ، ولم تكن النكتة مقصورة على الطبقات الشعبية فى المدائن والقرى ، ولكنها عرفت طريقها إلى قصور الملوك والحكام والأمراء . ومثال ذلك الشيخ على الليثى والشيخ على أبو النصر وكانا شاعرين من شعراء قصر الخديوى ، وكان الشيخ الليثى سميرا مليح النكتة حاضرها ، ومن ذلك أن احمد خيرى باشا « المهردار » ـ حامل خاتم اسماعيل ـ أراد أن يداعب الشاعرين فأمر أن تلصق ورقة على باب غرفة الشيخين الشاعرين فى قصر عابدين ، وفى الورقة الآية الكريمة : « إنما نطعمكم لوجه الله » . فلما رآها الشيخ الليثى فطن للدعابة ، وعرف أن الذى أمر بها هو « المهردار » فنظم بيتين من الزجل كتبهما فى ورقة والصقها على باب « المهردار » ، ويقول فيهما :

كانت لى طاحونة جوه الدار تدور وتطحن ليل ونهار
دورت فيها الثور عصى دورت فيها المهردار

وقد كان ذلك ردا ظريفا استملحه الخديوى وظل يردده مع ندمائه .

أمران حرص عليهما الناس

وفى هذا الجو غير المستقر انصرف الناس عن كل شىء إلا عن أمرين : إتقاء غضب الحاكم ، وتحصيل لقمة العيش . وكان فى جملة الذى انصرف الناس عنه التعليم لأن المواد التى كانت تدرس فى المدارس الأميرية كانت ثقيلة ، ولأن تعليم الأولاد كان يكلف الأسرة بعض المال ، والأولاد أنفسهم يعتبرون رأس مال تنتفع بهم أسرهم فى تحصيل الرزق .

وفى قرية باقور التى عشنا فيها ، كانت أحوال أهلها الاجتماعية والاقتصادية صورة شبيهة بسائر القرى ، فلا يختلف بعضها عن بعض غير أن « باقور » كانت تمتاز بكثرة السكان الأقباط فيها ، وبشدة تآلفهم . وكان التعليم فى المدارس الأميرية معنيا أبلغ عناية بتعليم اللغات الأجنبية خاصة الانجليزية والتركية ، حتى انصرف الناس عن تعلم العربية والعناية بشأنها . ولهذا لم يجد أهل الغيرة على الإسلام بُدا من الدعوة إلى تحفيظ القرآن الكريم فى كتاتيب مختلفة ، فألحقنى والدى بكُتّاب من تلك الكتاتيب لأحفظ القرآن ، كما كان يحفظه هو وجدى وأكثر أفراد أسرتى .

ولا أزال أذكر اسم شيخ الكُتّاب ، وهو **الشيخ عبد الحافظ فراج** . ومن خصائص هذا الشيخ التى يمتاز بها عن سائر شيوخ الكتاتيب أنه كان فقيها بتذكرة داود ، وهى كتاب يشتمل على الطب القديم ، ويكاد يستوعب خصائص النباتات البرية وما تتضمنه من فوائد صحية ، وكان الشيخ رحمه الله صلب العصا لا يرحم من يقصر فى الحفظ ، أو تسميع راتبه اليومى ، وكنا تحت اشرافه نشترك فى تنظيف الكتاب والحصر المفروشة فيه ، وكثيرا ما كنا نؤدى صلاة الظهر إذا وجبت داخل الكُتّاب ، وكان يؤمنا فى الصلاة . وكان الأجر الذى ندفعه لشيخ الكُتّاب أجرا ضئيلا جدا ، لا يكاد يفى بالحاجات الضرورية ، ولم يكن يشترط لنفسه شيئا يتفق عليه ، فمن شاء أهدى إليه ، ومن شاء أمسك ، وهو فى الحالتين شديد القناعة راض بما يعطيه الله من ثواب فى قيامه بتعليم صبيان القرية الكتابة والقراءة ، وحفظ القرآن الكريم .

والكُتّاب على هذه الصورة كان يقوم بمحو الأمية قبل أن يعرف أهل القرن الحاضر قيمة محو الأمية فى الشعوب ، ولقد كان الكتاب بذلك هو اللبنة الأولى فى بناء الثقافة العربية والاسلامية . فلولا وجود الكتاتيب فى القرى لبقى الناس فى إطار أُمية لا يحيا عليها شعب ، ولا تتلاقى فى ظلالها أمة ، وربما حملها عجزها عن اللغة العربية أن تلجأ إلى اللغة العامية ، التى يتغلق معها فقه الثقافة الإسلامية ، ويستعصى بسببها الانتفاع بأدب القرآن العظيم .

ولست أنسى قسوة شيخ الكتّاب حين كان ينهال على أقدامنا بالعصى ، فإذا ذهبنا إلى أهلينا والدموع تملأ مآقينا ، فإنهم لا يستمعون لشكوانا ولا يتألمون لما نقاسيه بل يقولون لنا : « إن عصا سيدنا من الجنة . فعلى قدر ما نصبر عليها تكون منزلتنا فى الجنة يوم القيامة » .

وبهذه الصرامة فى المعاملة بين البيت والكتاب كنا نقبل على حفظ القرآن وكتابته فى الألواح فى أمد غير طويل .

أردت أن أكون ضابط شرطة !

ولقد أذكر أننى حفظت نصف القرآن وسنى آنئذ إحدى عشرة سنة ، وبذلك امتهدت لى السبيل إلى الالتحاق بمعهد أسيوط الدينى لأن الالتحاق به كان موقوفا على حفظى نصف القرآن على الأقل . وعلى قدر ما كان والدى يحب إلحاقى بالمعهد الدينى فى أسيوط ، كنت أحب أن التحق بمدرسة البوليس ، وكانت رغبتى فى الالتحاق بمدرسة البوليس تملك على نفسى وتبدو فى عينى أعز أمنياتى ، ذلك أننى كنت أنظر إلى قريب من أقرباء والدتى كان ضابط بوليس ، وجاء ذات يوم إلى القرية لزيارة أهله فى

ثوب رسمى أنيق ، فلم يبق أحد من أهل القرية إلا خرج ينظر إليه فى زيه الجميل ، مرحبا به ، ومؤملا عنده خيرا يظفر به فى قريب من الزمن أو بعيد .

ولكن آمالى فى أن أكون رجل بوليس ذهبت أدراج الرياح ، فقد أصر والدى على أن التحق بالمعهد الدينى الإسلامى فى مدينة أسيوط التى تبعد عن قرية باقور بحوالى عشرة أميال ، فكنت أذهب إلى المعهد فى كل يوم سبت ثم أعود منه إلى قريتنا يوم الأربعاء من كل أسبوع ، وكان الحمار وسيلتى فى الذهاب والإياب ، فإذا ذهبت إلى أسيوط يوم السبت وضعت الحمار فى وكالة هناك لقاء أجر مناسب على أن تقوم الوكالة برعاية الحمار وإطعامه ، وربما تصرف صاحب الوكالة فى الحمار فأذن لبعض الناس فى أن يستخدمه لقاء أجر يدفعه إليه ، وبذلك يكون صاحب الوكالة قد انتفع منى ، وممن يكترى الحمار ليقضى به أمرا من أموره ، وهذا ما لم أعلمه إلا بعد فترة من الزمن .

وهنالك فى مدينة أسيوط بصعيد مصر كانت الحياة الثقافية أرفع أفقا من الحياة فى القرى ، وكانت هنالك جماعات نتعلم فيها الخطابة والكتابة ، ونستمع فيها إلى محاضرات من أدباء وعلماء .

كانت مدة الدراسة فى معهد أسيوط الدينى تسع سنوات ، منها أربع للقسم الابتدائى ، وخمس للقسم الثانوى ، وينال بعدها الطالب شهادة الثانوية التى كانت تسمى آنذاك الشهادة الأهلية ، وقد اختصرت مدة الدراسة فى القسم الثانوى لأننى تقدمت لنيل الشهادة الثانوية بعد حصولى على الشهادة الابتدائية بسنتين اثنتين ، وفى السنة الثانية من سنى القسم الثانوى أراد شيوخ المعهد أن ينتهزوا فرصة يدعون فيها لحزبهم ، وكان الحزب الوطنى ، على سبيل التنافس بينهم وبين حزب الوفد ، وقد كانت أحسن فرصة لهم إقامة حفل تأبين **للمرحوم أمين الرافعى** .

مادام الحديث عن **أمين الرافعى** وتأبينه فإن من الحق أن نعطى الناس صورة عنه ـ رحمه الله ـ فهو ابن المرحوم **الشيخ عبد اللطيف الرافعى** الذى تقلد مناصب القضاء والإفتاء فى مديريات الشرقية والغربية والبحيرة والقاهرة والاسكندرية ، وكان آخر منصب تقلده منصب الإفتاء فى الاسكندرية . فقد نشأ أمين الرافعى فى بيت علم وقضاء ودين ، أبوه قاض ، وجده قاض وأعمامه قضاة ، وأولاد عمومته قضاة وعمه الشيخ **عبد القادر الرافعى** تولى إفتاء الديار المصرية ، ولقد انطوى أمين الرافعى وهو طالب تحت لواء المرحوم **مصطفى كامل باشا** ، وتلقى تعاليمه من خطبه وأحاديثه الوطنية .

كان أمين الرافعى من كتّاب جريدة اللواء ، فقد كتب فى اللواء سنة ١٩٠٧م سلسلة مقالات عن حياة « **غريبالدى** » بطل الاستقلال الإيطالى . وكتب هذه المقالات

بتوقيع « حقوقي اسكندري » . ولما كان محبا للحرية عاشقا لها منذ صباه كتب وهو طالب مقالين فى اللواء يطعن فيهما قانون النفى الإدارى ، وقد كان من العاملين على تأسيس نادى المدارس العليا سنة ١٩٠٦م حتى أسس النادى برئاسة المرحوم عمر لطفى ، وافتتح فى أبريل فصار بمثابة معهد علمى وطنى أخلاقى تكوَّن فيه جيل من خيرة أبناء مصر . ثم كان أمين ركنا من أركان النادى ، وفيه تأسست جمعية رعاية الأطفال ، وفى قاعاته كانت تجتمع لجنة الجامعات المصرية ، وفيه نشأت مدارس الشعب ، فقامت عدة مدارس لتعليم العامة . وقام أعضاء النادى مع أمين الرافعى بالتدريس فى تلك المدارس ، ثم فى هذا النادى نشأ مشروع النقابات الزراعية ، وكان النادى مثلا للسلوك الإسلامى الكريم ، يروض الطلبة فيه أنفسهم على أخلاق الإسلام وفضائله إذ كان قد انفرد بتجنب الميسر والمسكرات وهما الأمران اللذان تعيش عليهما معظم الأندية . وكان أمين الرافعى الوطنى الحر عضوا بارزا فى الحزب الوطنى ، أو زعيما من زعمائه ، ولكنه كان ينسى حزبيته أمام الصالح الوطنى العام ، فموت مثله من أعاظم الرجال الوطنيين يثير اللوعة والأسى فى نفس كل مصرى ومصرية ، بل فى نفس كل إنسان يعرف قيمة الحرية ، ويفتقد الأحرار المصلحين .

وكذلك كان أمين الرافعى مثلا لشرف الوطنية وصدق الزعامة . وأحق الناس بمعرفته والإعجاب به ، والسير على طريقه هم الطلاب فى المعاهد الدينية والمدارس الحكومية سواء فى ذلك المسلمون أو الأقباط ، الحزبيون وغير الحزبيين . ومن هنا اجتمع بعض المدارسين الذين كانوا ينتمون إلى الحزب الوطنى فى معهد أسيوط الدينى ، وعلى رأسهم الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، وأخذوا يفكرون فى إقامة حفل لتأبين المرحوم أمين الرافعى ، فى الوقت الذى كان فيه الوفديون قد أقاموا حفلا للزعيم سعد زغلول باشا .

واذكر ـ فى هذه المناسبة ـ اننا كنا نلتقى ببعض شيوخنا فيقصون علينا من نبأ أمين الرافعى ما يزيده تكريما وإعزازا ، ويزيدنا تشبثا بمبادئه ودراسة لتاريخه فى إطار الحركة الوطنية .

وذات يوم قررنا إقامة حفل فى دار من دور السينما فى أسيوط ، ورحنا نطوف على بيوت مشايخنا ندعوهم إلى مشاركتنا بالإسهام ببعض المال فى إقامة هذا الحفل ، الذى يجب أن يكون لائقا بكرامة أكبر معهد دينى علمى إسلامى فى الديار المصرية ، وقد كان من شيوخنا من يرضى ذلك الاتجاه ، ومنهم من ينكره وينصحنا بالبعد عن السياسة .

ولعل من الحق علىّ ـ لله ثم للتاريخ ـ أن أذكر فى هذا المجال شيخا من شيوخنا كان معروفا بالتقوى والورع ، وهو الشيخ عبد الرحمن محروس ، فقد ذهبنا إليه فى داره نسأله المعونة ، فلم يبخل علينا بالمال ، ولكنه عرض علينا اقتراحا يقول فيه :

« الأحسن يا أبنائى أن تنفقوا هذا المال الذى جمعتموه من المشايخ فى شراء عجل كبير تذبحونه وتوزعون منه على الفقراء ، ثم تجتمعون جميعا فى المسجد الكبير وتقراون ختمة ، وتهبون ثوابها للمرحوم ، فإن ذلك انفع له ، وأكثر ثوابا من الكلام الذى ستقولونه فى حفل التأبين ، وربما كان هذا الكلام فيه كذب لأن العلم الحقيقى المحيط بأحوال الناس لا ينبغى أن يكون إلا لله رب العالمين » .

الاقتراح كان وجيها ولكن لم يقابله طلاب المعهد بالارتياح ، فأصروا على إقامة الحفل كما كان مقررا من قبل ، وقد دعى إلى هذا الحفل صفوة أهل الوجاهة والعلماء والأدباء ورؤساء الهيئات ، وفى مقدمتهم **الأمير عمر طوسون** أحد أمراء البيت المالك ، وكان يمتاز بين سائر الأمراء والنبلاء بالغيرة على العلم والعلماء ، وكانت صلته بالجمعيات الإسلامية صلة وثيقة ، وفى ذروتها جمعيات الشبان المسلمين العالمية . وكان من الذين حضروا الحفل أيضا **المجاهد الكبير عبد الحميد سعيد** مؤسس جمعيات الشبان المسلمين العالمية ، والأستاذ **حسين أبو زيد المحامى** فى أسيوط وعضو الحزب الوطنى الذى شغل منصب وزير المواصلات فى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م .

وقد اشتركت فى حفل التأبين نائبا عن طلاب المعهد الدينى فى أسيوط بقصيدة وهذا نصها :

عزيز على من كان بالأمس مادحا ... أمينا ـ مُعافى ـ أن يرى اليوم راثيا
يغالب ألاما يرى عند ذكرها ... بكاء الدما إثر الدموع تباكيا
رويدك يا دهر انئذ لست مُنصفا ... إذا أنت حاولت المصائب ثانيا
نعيت أمينا وهوال أمة ... فاسكت صوتا كان فى الحق عاليا
وليس زعيما من يحارب دينه ... ولكنه من كان للدين داعيا
أمين ـ ولم أعهدك من قبل صامتا ... تنادى فتأبى أن نجيب المناديا
لقد كنت للشعب الأسيف أمانيا ... فجندلت الأيام تلك الأمانيا
وكانت بك الأيام غُرا نواصعا ... فلما تناءيت استحالت لياليا
أمين ـ وقد جاورت فى القبر مصطفى ... وجئت فريدا من تبنى العواليا
وصادفت سعدا قُل لهم إن أمة ... تركنا حماها جازها العد قاليا

ثم لما فرغت من إنشاد هذه الأبيات جاء إلى شيخ من شيوخى معروف بالزهد والتقوى والعلم ، **وهو الشيخ عبد الرحمن محروس** ، الذى كان يؤثر توزيع الصدقات على إقامة الحفل ، وقال لى : إنك تستحق العالمية من الدرجة الأولى ، لأنك تؤمن أن أصلح الناس لزعامة الشعوب هم رجال الأزهر الشريف الذين يدعون للدين ، فلو أننى عشت لسعيت عند لجنة الامتحان حتى تنال الدرجة الأولى على شرط

أنك تعدنى بأنك لا تقرأ الجرائد ، فإن الإجماع على أن قراءة الجرائد حرام ، لما فيها من الغيبة والنميمة التى حرمها الله على عباده المؤمنين .

وحصلت على الشهادة الثانوية بعد سنتين بدلا من أربع سنوات ، وتركت معهد أسيوط لألتحق بالقسم العالى بالأزهر الشريف .

فى رواق الصعايدة

وقد كان مما جرى به العرف أن كل من جاء إلى الأزهر لتلقى العلم على شيوخه الأجلاء ، كان عليه أن يقيد اسمه ـ قبل كل شىء ـ فى الرواق المخصص له ، إذ كان هناك رواق للصعايدة ، وآخر للمغاربة ، وثالث للشوام ، ورابع للجبرت ، وخامس هو رواق معمر . فكان طبيعيا أن أقيد اسمى فى رواق الصعايدة حتى يكون لى الحق فى الحصول على أربعة أرغفة صبيحة كل يوم . وكانت هذه الأرغفة الأربعة فطورنا وغداءنا وعشاءنا ، وكان الفول المدمس أشهى ما يأكله الإنسان فى مطعمين من المطاعم حول الأزهر ، أحدهما مطعم الفوال طه حسين ، والآخر مطعم الفوال مهيا ، وكان مطعم مهيا أعرف بأصول أكلة الفول الشهية ، إذ كان هو الوحيد الذى يصنعه بالطماطم والسمن البلدى وهى وجبة لا يذكرها الإنسان اليوم إلا ليتمثل خبزا يصفه الواصفون لنعومته ورقته بأذن القطط ، فإذا نظرنا إلى الفول المدمس رأوه أشبه بقطعة من الزبد ضاعت فيها معالم الفول ، فأصبح الآكل وكأنه يأكل زبدا خالصا ، ويا ويح الذين عاشوا فى تلك الأيام على ما كان فيها من رخاء وهناءة ، ثم أدركتهم الحياة فى هذه الأيام على ما فيها من غلاء وبلاء .

ولقد كنا بعد تناول الفطور فى صحن الأزهر ينصرف كل واحد منا إلى حلقة الدرس ، ليستمتع بأشهى ما فى الحياة فى حلقة شيخ وقور يشرق نور الإيمان فى وجهه إشراقة يستروح فيها المرء الأمن والطمأنينة والسكينة والسلام .

ولست أنسى الشيخ الذى قيدت فى حلقته أخذ عنه الفقه على مذهب الإمام مالك فى « الشرح الكبير » والحديث النبوى الشريف فى « فتح المبدى » بشرح شيخ الإسلام شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوى .

وشيخ الحلقة التى كنت أتلقى فيها هذين الدرسين كان إمام أهل السنة السلفى الصالح الشيخ محمود خطاب السبكى رضى الله عنه ، وعن سائر شيوخى أجمعين ، وإذا انصرفنا من الدرس انصرف كل ذى رواق إلى رواقه . ولست أنسى اليوم الأول الذى دخلت فيه إلى رواق الصعايدة لأتعرف على سائر إخوانى وأهل